ابن قتيبة وقضية الصراع بين القديم والحديث

نظرة الجاحظ الى الالفاظ والمعاني اوقعت النقاد في اسره فيما بعد وجعلتهم جميعاً يدلون بدلوهم فيها متوهمين احياناً في فهم رأي الجاحظ مبالغين في اعطاء الالفاظ حظها ومكانها في النص الشعري وقد قادتهم هذه النظرة احياناً الى الفصل التام بين الالفاظ والمعاني وكأنهما عالمان مختلفان غير مرتبطين . ونلحظ هذا الفصل في تقسيمات ابن قتيبة لأضرب الشعر التي توحي اول ماتوحي بعملية الفصل بين الالفاظ والمعاني . فقد تدبر ابن قتيبة كما يقول الشعر فوجده اربعة اضرب : ـ

١ . ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل :

في كفه خيزران ريحه عبق
من كف اروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضي من مهابته
فما يكلم الا حين يبتسم

فلم يقل في الهيبة شيء احسن منه وكقول اوس بن حجر :

ايتها النفس اجملي جزعا
ان الذي تحذرين قد وقعا

لم يبتدىء احد مرثية احسن من هذا ... وكقول حميد بن ثور :

ارى بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داء ان تصح وتسلما

ولم يقل في الكبر شيء احسن منه وكقول النابغة :

كليني لهم يا اميمة ناصب
وليل اقاسيه بطيء الكواكب

لم يبتدىء احد من المتقدمين بأحسن منه ولا اغرب ومثل هذا في الشعر كثير(١) .

٢ . ضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولا ينظر الغادي الذي هو رائع
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الاباطح

هذه الالفاظ ـ كما ترى ـ احسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع . وان نظرت الى ماتحتها من المعنى وجدته . ولما قطعنا ايام منى واستلمنا الاركان . وعالينا ابلنا الانضاء . ومضى الناس لاينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الاباطح) .

---

١ . راجع الشعر والشعراء ١/ ١٢ فما بعدها (ط . بيروت)

ان تعليق ابن قتيبة السابق على الابيات يدلنا على رفضه لهذا النوع من الاشعار الرقيقة وعدها بالمرتبة الثانية من الاشعار التي يلمح فيها جمالا في اختيار الالفاظ مخارج ومقاطع ومطالع لالشيء الا لانه نثر الابيات فوجدها لاطائل تحتها لمعان مفيدة ولعله كان يرى (ان الفكرة الشعرية كالفكرة العلمية او ان الشعر ضرب من الحكمة يعترف به العقل ويحكم سداده لانه حقيقة كونية ويغفل عن النظر التصويرية التي يحتل الشعر بها منزلته بين الفنون)(٢) .

وعلل د . داود سلوم سبب وقوف ابن قتيبة هذا الموقف من هذا الضرب من الاشعار بأن النزعة الاخلاقية والنزعة الفقهية مسوؤلتان عن هذا الموقف المتجني(٣) وقد يصدق هذا الرأي على ابيات الضرب الثاني من اضرب الشعر عند ابن قتيبة ولكنه لايصدق مع الضرب الثالث الذي اورد فيه كثيرا من اشعار الحكمة المفتقدة الى جمال الالفاظ والمعاني وهذا يعني ان النزعة الاخلاقية ليست وحدها وراء تقسيمه العقلي هذا للاشعار وقد نضيف اليه تعليلا اخر هو فهم ابن قتيبة الخاص لنظرية المعاني والالفاظ التي تحدث عنها الجاحظ وبشر بن المعتمر من قبله . وبالغ ابن قتيبة في النظرة الانفصالية الى هذين الحدين اللفظ والمعنى ، وحين حاول نثر الابيات بحثا عن المعاني انحل جمالها وذهب بهاؤها المتأتي من جمال الصورة وهذا يمكن ان تدرج تحته كثيرا من اشعار الغزل والوصف التي اذا نثرت فقدت جمالها وبهاءها وتحولت الى معنى مألوف معروف الا ان فضل الشاعر هو في اخراج هذه المعاني لا من خلال الالفاظ فحسب وانما من حلال الصور الفنية التي تترك اثرا في النفس اكثر منها منثورة .

ان كثيرا من الاشعار الجميلة الرائعة تفقد بهاءها اذا نثرت واعيدت الى معانيها الحرفية التي خطرت في ذهن الشاعر اول مرة وعند ذاك تبرز امامنا مقولة الجاحظ بشأن كون المعاني مطروحة في الطريق واردة في خاطر كل انسان فلا يبقى فرق بين شاعر وشاعر الا في مدى ابداعه في ابراز المعنى المألوف ابرازا جميلا يبدو وكأنه جديد يخطر اول مرة في ذهن الشاعر او السامع اما اذا نثر فأن المعنى يعود مألوفا شائعا معروفا بين الناس .

---

(٢) دراسات طبانة / ٣١٩

(٣) مقالات في تاريخ النقد ١٦٠ .

وقد عد قدامة بن جعفر الابيات السابقة نموذجا للاشعار التي توافرت فيها شروط اجادة الالفاظ من سهولة وسماحة وسهولة مخارج الحروف والفصاحة والخلو من البشاعة(٤) .

اما ابو هلال العسكري الذي بدا منحازا الى الالفاظ وبين فضلها فأنه اوردها شاهدا لكون مدار البلاغة على تحسين اللفظ وحسن اختياره مستخدما تعبير ابن قتيبة نفسه في وصفها بجودة المطالع وحسن المقاطع وبديع المبادىء وغريب المباني واكتفى ببيان فضل هذه الالفاظ دون محاولة الانتباه الى المعنى وجمال ايراده(٥) .

وقد استقصى د . بدوي طبانة آراء النقاد في الدفاع عن هذه الابيات وكونها(٦) ترتفع عن المنزلة الثانية التي وضعها ابن قتيبة فيها .

يتحدث ابن جني في كتاب الخصائص في باب المرد على من ادعى على العرب عنايتها بالالفاظ واغفالها المعاني يتحدث عن العناية بالالفاظ ماتفهم منه صعوبة الفصل بين الالفاظ والمعاني اجادة او اساءة ورأى ان العرب حين اولت عنايتها بالالفاظ فلانها عنوان معانيها وطريقها الى اظهار اغراضها ومراميها فاصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة ... فاذا رأيت ان العرب قد اصلحوا الفاظها وحسنوها وجملوا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها(٧) وارهفوها فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف)(٨) .

وفي هذا رد على ابن قتيبة الذي جعل الضرب الثاني مما جاد لفظه وحلا ولا طائل للمعنى فيه لان حلاوة الالفاظ وجمالها تبرز المعنى وتحسنه . وبعد ان بين رأيه في الالفاظ والمعاني وقف عند الابيات السابقة ليحللها ويرد على ابن قتيبة دون ان يصرح باسمه تأدبا وتواضعا ورعاية للعلم والعلماء . وانما اكتفى باتهام من عاب هذه الابيات بعدم امعان النظر فيها وبسبب جفاء الطبع وخفاء غرض الشاعر

---

(٤) نقد الشعر ١ / ١٣

(٥) الصناعتين ٦١ / وانظر ابو هلال العسكري ٦١ . النظرية النقدية ١٧٩

(٦) دراسات ٢١٩

(٧) الغروب الاطراف

(٨) الخصائص ٢ / ٢١٨

عنه ، وبذا حاول تتبع الصور الفنية الجميلة فيها محللا ومناقشا ويمكن ان ندرج دفاعه بما يلي : ـ

١ . ان قول الشاعر (كل حاجة يفيد منه اهل النسيب والرقة وذوو الاهواء والمقت مالا يفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ، الا ترى ان من حوائج منى اشياء كثيرة غيرما الظاهر عليه والمعتاد فيه سواها ، وان تنكير حوائج قد يوحي بأمور كثيرة منها التلاقي والتشاكي والتخلي ، فجاء بالشطر (ومسح بالاركان من هو ماسح) ليبين ان الحوائج التي قضيت والاداب التي تمت هي مسح الاركان وما هو به وجار في القربة من الله مجراه . واذا كان تعبير (كل حاجة) يوحي بأكثر من حاجة تتوقع فلا نعرف سبب ربط ابن جني لمعاني التشاكي والتلاقي والفراق والتخلي وغير ذلك من معاني الغزل والموقف هنا ليس وصفا لموقف وداع عاشق او متغزل حتى تتداعى الى الذهن تلك الصور وانما هو موقف من ادى فرائض الحج كاملة . وسنجد عبد القاهر الجرجاني اكثر دقة وارهف احساسا في تحليل هذه العبارة دون الاكتفاء بدلالة الشطر الاول على العموم والشطر الثاني على الخصوص .

٢ . (اخذنا باطراف الاحاديث بيننا) هنا يتعجب ابن جني ممن عاب البيت لان الشاعر كان دقيقا في اختيار الالفاظ ودلالاتها فلو قال اخذنا في احاديثنا او نحو ذلك لكان فيه معنى يكبره اهل النسيب وتعنوا له معه الماضي الصليب ، وذلك انهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الاليفين ، ثم تمثل ابن جني بنصوص شعرية جميلة تذكر الحديث وتصفه كقول الشاعر .

وحديثها كالغيث يسمعه
راعي سنين تتابعت جدبا
فاصاح يرجو ان يكون حيا
ويقول من فرح انا ربا

وبعد ان يذكر شواهد اخرى يقول (اذا كان قدر الحديث عندهم على ماترى فكيف به اذا قيده بقوله (اطراف الحديث) وذلك ان في قوله اطراف الاحاديث وحيا خفيا ورمزا حلوا الا ترى انه يريد باطرافها مايتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح وذلك احلى وادمث واغزل وآنس من ان يكون مشافهة وكشفا ومصارحة وجهرا واذا كان كذلك

ففي هذين البيتين اعلى عندهم واشد نفوذا في نفوسهم من لفظهما وان عذب موقعه وانق مسمعه)(٩) .

٣ . ان في قوله (وسالت باعناق المطي الا باطح) من الفصاحة مالا خفاء فيه اما عبد القاهر الجرجاني فأنه تابع الصور الفنية السابقة مضيفا اليها روحه المعروفة في تذوق النصوص وتحليلها ومحاولة بيان فضل الاسلوب من خلال دلالة الالفاظ بما ضم اليها وما توفر فيها من اضرب البيان والتعبير . والابيات المذكورة تمثل بها لبيان فضل الاساليب الجميلة وما تقدمه من معان جديدة لان استقصاء الاشعار التي اعجب بها الناس ووصفوها بالرقة والسلاسة وقالوا عنها بانها كالماء جريانا والهواء لطفا وغير ذلك من الصفات ، هذه الاشعار لم تتجاوز اجادة الشاعر في استخدام الاستعارة في موقعها او اصابة الغرض او حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع(١٠) ، واذا كان الامر كذلك فلابد ان تكون ابيات (ولما قضينا) التي وصفت باجادة الالفاظ جيدة المعاني في الوقت ذاته .. وللوصول الى هذه النتيجة يحلل الجرجاني اشطر البيت كما يلي : ـ

١ . قوله (ولما قضينا من منى كل حاجة) عبر فيه الشاعر عن قضاء المناسك باجمعها والخروج من فروضها وسننها من طريق امكنه ان يقصر معه اللفظ وهو طريق العموم ثم نبه بقوله (ومسح بالاركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذي هو اخر الامر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر .

٢ . قوله (اخذنا باطراف الاحاديث بيننا) يحلله عبد القاهر ايضا ويكون في فهمه الاستعارة اكثر دقة ممن سبقه فهو لايستطرد الى دلالة الحديث على معاني المودة التي يكبرها اهل النسيب ومن يعنو الى ميعة الصبا لان الموقف هنا ليس موقف اهل النسيب وانما تحسس علاقة (اخذنا باطراف الاحاديث) بالصورة السابقة ومسح الاركان وما وليه من زم الركاب وركوب الركبان . لان عودة الحجيج مقترنة بالانتهاء من آخر مناسك الحج وهو مسح الاركان .

اما لفظة الاطراف فهي تدل على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث . وقد فهم عبد القاهر الجرجاني من تبادل

---

(٩) الخصائص ١ / ٢٢

(١٠) اسرار البلاغة ٢٢

اطراف الحديث جوا نفسيا مريحا ساد الرفقة وجعلهم نشطين يتبادلون الاحاديث ومرد سرورهم الى جملة امور منها : ـ

أ . ماتوجبه الفة الاصحاب وانسة الاحباب .

ب . مايليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجاء حسن الاياب .

جـ . تنسم روائح الاحبة والاوطان ..

د . تخيل استماع التهاني والتحايا من الخلان والاخوان .

٣ . (سالت باعناق المطي) برأي الجرجاني ان الشاعر قد زان الجو النفسي السابق الذي نجح في رسمه في ذهن القارىء باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه وافاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرح بما اومأ اليه في الاخذ بأطراف الاحاديث من انهم تنازعوا احاديثهم على ظهور الرواحل وفي حالة التوجه الى المنازل او اخبر بعد بسرعة السير ووطأة الظهر اذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الاباطح وكان في ذلك مايؤكد ماقبله لان الظهر اذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا .

ثم قال (باعناق المطي) ولم يقل المطي لان السرعة والبطء يظهران غالباً في اعناقها ويبين امرهما من هواديها وصدورها وسائر اجزائها اذا كانا في انفسها بافاعيل لها خاصة من العنق والرأس .

ان تحليل عبد القاهر الجرجاني للابيات لايفيدنا في الدفاع عن قيمتها واجادتها قدر افادتنا في الاطلاع على قدرة هذا الناقد على تحليل النصوص واستنباط مواطن الجمال منها مما قد يغفل عنه القارىء اول وهلة بل تجد نفسك موافقاً له كل الموافقة في تتبع الدلالات الجميلة وتعجب معه من ابن قتيبة الذي اخر هذه الابيات الى المرتبة الثانية .

وبعد ان استوفى عبد القاهر الجرجاني الابيات تحليلاً وابرز جمال صورها ودلالة الالفاظ على جانب من جوانب حسن التصوير فيها يعود الى ختم حديثه بقوله : ـ

(فقل الان هل بقيت عليك الان حسنة تحليل فيها عن لفظة من الفاظها) .

بل حق هذا المثل ان يوضع في نصرة المعاني الحكمية والتشبيهية وبذا(١١) امتاز عبد القاهر الجرجاني بالتحليل والوصف فأفاد صاحبه اعظم افادة من ايجاز ابن

---

(١١) اسرار البلاغة ١٨

جني واشارته(١٢) . كما انه عد هذه الابيات شاهداً على اجادة المعنى واجادة اللفظ معاً لاكما ذهب ابن قتيبة في جعلها ضمن الضرب الثاني من اضرب الشعر التي جادت الفاظها ولا معاني شريفة لها .

ونعود الى اضرب الشعر التي قسمها ابن قتيبة فيكون الضرب الثالث منه :

٣ . ضرب جاد معناه وقصرت الفاظه عنه .. كقول لبيد :

ماعاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

وهو يدرج تحت هذا الضرب الابيات التي تحمل معاني الحكمة او ما اسماه بالمعاني الجيدة الشريفة الا انه احس ان لاروح شعرية فيها ولا جمال فنيا فيها . تفهم هذا من عبارته (فأنه قليل الماء والرونق) وهذا يذكرنا بشرط الجاحظ الرابع الذي وضعه للنص الجيد (كثرة الماء) .

٤ . اما الضرب الاخير فهو الذي افتقدت فيه الشواهد والاشعار الى جودة المعاني وجمال الالفاظ وتندرج تحته كل الاشعار الرديئة واذا كان ابن قتيبة قد حكم المعاني والالفاظ في تصنيف الاشعار ضمن هذه الاضرب الاربعة بسبب تبنيه لفضل المعاني على الالفاظ فأن له اراء اخرى مهمة جداً بحث فيها عن دوافع الشعر والاوقات التي ينشط فيها الشاعر وتشحذ قريحته مما عدفيها من اوائل المؤلفين الذين اولوا هذا الموضوع اهمية كبيرة .

القديم والحديث :

تعد الاراء النقدية التي سجلها ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) من الاراء المهمة التي استطاع تسجيلها والدفاع عنها وتبنيها وقد تجاوز فيها ابن قتيبة الاكتفاء بنقل آراء غيره الى اختيار الاراء النقدية التي توافق رأيه والدفاع عنها ، وتوضيحها وتفصيلها . ومن بين هذه الاراء رأيه في القديم والحديث من الشعر ، وحديثه عن بنية القصيدة العربية وتقاليدها وبواعث الشعر وحوافز القول فيه .

---

(١٢) دراسات ٢٢٤